

على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بنلم فزاد اقوام البشاني

وقد يكرن من الابناء ضحايا في سبيل كمالهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الثالث عشر

لماذا ؟

طال الحصار الى ابعد مما كان يعتقد الجزار ، فكاد يقلق لمصير قلعته ، وهو يرى الافرنج يضيقون نطاق جيشهم شيئاً فشيئاً ، ويسهرون على سد المسالك كلها ، فلا يرون رجلاً ألا أسروه ، ولا قافلة الا وضروا يدهم عليها ؛ والجزار ينتظر عبثاً ما آمله من الامداد من جهة الشام ، ومن جهة الامير بشير . حتى كان السادس عشر من نيسان فرصته الاخبار الشؤومة بان الفرناويين انتصروا انتصارهم الباهر حول جبل الطور ، فبددوا جيش الشام بكامله ، واستولوا على معدّاته وذخائره . فهاج مرلى عكا ، وأسر بقتل من اوصل اليه الخبر . ولما لم يكن استلم شيئاً من الامير بشير ، حوّل غضبه وجهة غانم ، فأمر بالتضييق عليه .

ولم يكن بحاجة الى هذا التضييق الشديد ليدفع غانماً الى اليأس . فان اما كان وصل اليه هذا مع عائلته من ضنك المعيشة كان كافياً لتهدة اشدّ الاعداء غضباً ، واقسى الحصور انتقاماً . فان تلك الجراية الصغيرة التي كان يعطاها يومياً من الخبز الاسود ، لم تكن لتنبه شيئاً ، فضلاً عن فرحات ، وعن بدور التي كان عليها ايضاً ان ترضع الصغيرين ؛ وان ذاك الكوز من الماء .

الأجاج لم يكن لينقع غليلاً. هذا الى اوساخ مقراكمة في الميناء تحت الشباك ، وروائح كريهة منبعثة من اطراف القلعة ، ورطوبة ثقيلة ترشح من سقف ذلك الكهف واطرافه ، فتؤذي الاعين ، وترشح الادمغة ، وتضني الاجسام . كل ذلك الى الهواء الفاسد الهاب من مصكر الفرنسيين ، وقد اخذت اوبئة الطاعون والحشيات تفشو في جيوشهم ، كان شديد الوطأة على عائلة غانم عامة ، وعلى صغيره خاصة ؛ فلم يلبثا ان ظهر عليهما الذبول ، فتكرت اجفانهما ، وهزلت اعضاؤهما ، واضطربت حركاتهما ، وتملك عليهما سُعال جاف مقرون بدور من الحُمى ينضحهما عرقاً قبل ان يرعد فرائصهما بيرده القارس ، فيطرحهما زهرتين قصتهما عاصفة هوجاء وهما في نضارة الربيع .

وكانت بدور تلقيهما على فراش حقير ، وتركع امامها حيرى في ما تفعل ، تأنثه عما تفكر ، تصلي ساعة وتبكي ساعات . ، وتومئ حيناً بعد حين الى فرحات ، فيناولها كوز الماء وهو العلاج الوحيد الذي حصلوا عليه . بينما كان غانم يتجمع على نفسه في زاوية الغرفة ، فيشخص ببصره تارة الى صغيره ، وطوراً الى السماء يتلسها من خلال شقوق النافذة ، فيراها غبراء من وراء دموعه المتناثرة ، فيضبط انفاسه الجائشة ، ويكبح عواطفه الثائرة ، متأسفاً حيناً على ذهاب الاب توما طبيب النفس والجسد ، وفراق مصطفى آغا ، مستلماً حيناً آخر الى مشيئة الله . حتى اذا سجع السعال يملك صدرى وجديده العزيزين ، وهو لا يقوى على معالجته ؛ ورأى الداء يُمِثت انفاسهما اللاطيفة ، وهو لا يتمكن من مقاومته ؛ وشعر بشبح الموت يفسل اليهما بقدم ثابتة وعزم اكيد ، وهو لا يقدر على رده ولو بتضحية روحه ؛ تدانعت عوامل الحزن في جوارحه ، وضغطت عواطف اليأس على نفسه ، فشرق بدموعه ، وانفجر صدره بالآثات ، فالتفت الى العلاء ، وتأوه :

- اللهم ! لماذا ؟ ... لماذا ابعدت عنا الاب توما ؟ لماذا جعلت الجزائر يحظر على مصطفى آغا المجي . لينا ؟ لماذا رميتنا بهذا الكهف دون معين ؟ لا اعترض على مشيئتك يا رب ... ولكن ... اي ذنب جناه هذان الصغيران فلزم ان يكفرا عنه ؟ اي جرم اقترفه هذان الملكان فوجب ان يقاسيا العذابات

من اجله ؟ لماذا صرّفت غضبك اليهما دوني ؟ لماذا ثقلت يدك على جسيهما
الضعيفين ؟ لماذا ؟ ... لماذا ؟ ...

حتى اذا انقضت تلك الازمة سكن سكوتاً موقتماً بين عاصفتين لا تلبث
الثانية ان تهبّ عليه اقوى من الاولى ، فيردّد : لماذا ؟
اما الالم فكانت تمثال حزن واسى ، اذابها السهر وسوء الغذاء ، وصنع
الحزن مجريها بصفرة شايها سواد ، وخدّعت الدموع وجنتها ، وهدّ الاسى
قواها ، فهبطت تتلاشى شيئاً فشيئاً ، لا يمينا فيها ألا العينان ، ولا يئنه ألا
موضع الالم .

لم يتوّ الصنيران على احتمال تلك العذابات طويلاً ، فاخذ الزراع يملك
جسيهما شيئاً فشيئاً ، الى ان كان اليوم العاشر من ذاك المرض الميت ، فخذت
حياة سعدى في صباحه . ولم تلبث ان استدعت اخاها عند المساء فلبأها ،
متخلصين من اعباء حياة لم تخلق لامثالها فثقلت عليهما وطأها ، ولم يقطعا منها
بعد ألا مرحلة قصيرة ، ولم يفتحا اعينهما الا على ظلام كثيف . فانتقلا الى مقرّ
اشباهما . . .

من الاوتار الحساسة ما يردّ لأخفى ما يمسّه من النفات صدئ بعيداً ، حتى
اذا فاجأته النقرة القوية انقطع وسكت . وكذلك بعض النفوس البشرية ،
ومنها نفس غانم . فان ذاك الشاب الدقيق الحسّ ، الذي لم يكن يزعج
عائلته امرئهما كان بسيطاً ، حتى تنفجر دموعه ؛ والذي كان ، لدقائق خلت ،
يكاد يستسلم للأناس القاتل لدى مشاهدته عذاب وحيديه ؛ هذا الرجل
الوافر الشعور لم يتحقّق ان الموت جدّ اطراف عزيزيه ، حتى جئت دموعه ،
وسكنت أناته ، ووقف ساكناً كأنه بعيد عن تلك المأساة . ذاك ان النقرة
كانت اقوى من ان تحلّوها اوتار نفسه الدقيقة فتقطعت ، والمصيبة كانت
اشدّ من ان يصبر عليها قلبه الرقيق فأنخلع ؛ وما لبث ان هبط بكّله في ذاك
الظلام الثقيل ، وليس فيه من دلائل الحياة سوى نظر جامد وهيئة بلهاء تدلّ
بجميعها على سزال بعيد الجواب : لماذا ؟ ...

الفصل الرابع عشر

مواب السوال

ان لم تكن بدور رمت بنفسها من النافذة على البحر ، فذلك لانه كان لا يزال في قلبها المضطرب بقية ايمان عزيز ، ولانه كان الى جانبها رجل بحاجة شديدة الى من يعزبه . وهي ، لولا ذلك ، لما اشرفت عليها شمس الصباح التالي...

على ان للنساء ازاء الفراجع الفادحة صبراً قد يفوق صبر الرجال ؛ لا لكونهن اوفر رزاة ، واصح بصراً بمواقع الامور ، بل لما في طبيقتهن من البدهاة في العواطف والسرعة في التأثر . فكما انهن اسرع اندفاعاً في اثاره الحزن ، كذلك تراهن اسرع قلبية لداعي الصبر والسوان . فضلاً عن ان عليهن من الواجبات البيتية العديدة ما لا يسمح لهن طويلاً بالاستسلام لمثيرات الاسى . فكانت بدور ، اذا طلع الفجر ، تقود زوجها الى قبر الصغيرين في حوض قريب من الغرفة ، فيصليان هنية ، ثم يرجعان الى البيت فتتصرف هي الى بعض اشغالها ، ولا هم لها الا التفكير بالبعد عن تلك الديار المشؤومة ؛ ويحجم هو على ذاك الفراش الحقيق يتنجس آلامه واحزانه .

اماً فرحات فكان كالصم وسط هذه المأساة ، تالت عليه الخطوب في ما مضى من السنين ؛ حتى اذا امل بقليل من الراحة في آخر ايامه ، اصابه القدر بتلك النازلة فذهبت بكل ما كان باقياً في نفسه من تجلّد ورباطة جأش . فقد اروح ويحيى . ذاهلاً ، فيقتضي حاجات الاسفين صامتاً ، لا يفكر الا بطريقة يخلص بها غائماً وبدور من قرب الجزائر ، فيسليهما نوعاً عن ذاك الحزن المذيب .

وبينما هو ماز في صباح من اوائل ايار ، امام باب السراي ، يلتبس لسيديه ما يا كلان ، اذ استوقفه شيخ رث الثياب مقمّ بعملة بيضاء ،

فدعر فرحات خائفاً من مصيبة جديدة . فهذا الرجل روعه ، وانفرد به في زاوية ثم قال :

- ألم تمرّفي يا فرحات ؟...

واذ حملت هذا استغراباً ، قال الغريب :

- دلني على مقر غانم ، فتابع الحديث في مأمن .

فقاد فرحات ذاهلاً الى غرفة سيده . وما وصل حتى التى تلك الهامة الكبيرة وقال :

- انا هنا بيدر ، يا سيدي ، من كاتوليك دير القمر . كنت في خدمة المشايخ النكديّة من زمن طويل . وقد اشتهرت بالحيلة والدهاء حتى اني توصلت ، منذ عشرين سنة ، الى تخلص ابني الشيخ الي فاعور النكدي من سجن الجزائر في صيدا ، وكان لا يزال فيها : فخلصتها من تحت ذقنه ، وحضرت بهما الى دير القمر .

فتركت بدور شغلها واقبلت على الغريب تتلقف باقي حديثه ، وقد لمعت عيناها بنور غريب . اما غانم فظل مطرق الرأس حائزاً .
فتابع الرجل :

- وقد دعاني الامير بشير من مدة ، وقال ان مجي الفرساوية قد احدث تضعفماً في الاحزاب اللبنانية فكاد يتفصل حزب بو غانم عن حزب المير جهجاه ، وان لا رأب لهذا الشقاق الا بوجود غانم عندنا . ثم كلّفني خلاصك وبذل لي مالاً كثيراً فتعهدت بذلك . واتيت مع قافلة من وجها . المواردنة ارسلهم البطريك يوسف التيان ليلاقوا الفرساوية ، ويهدوا اليهم شيئاً من المون والذخائر . فلما افترقوا هم قاصدين معسكر بونايرتي ، سميت انا نحو عكا ، فلم يلبث حراسها ان قبضوا عليّ . قتلتمهم ابي درزي هربت من جور الامير بشير ، فتركوني حراً وسط المدينة . فسرت اقتش عن مقرّك ، يا سيدي ، لملي لا اعدم وسيلة لخلاصك .

فقلب غانم شفتيه وطمع :

- لا سبيل الى ذلك فالاسوار عالية ، والابواب محروسة ا

ثم مرّ رأسه يائساً ، فنظرت اليه بدور ملياً بكل ما في قلبها من شفقة ، وبكل ما في جوارحها من توق الى الخلاص . ثم حوت وجهها الى فرحات فتبدلت واياه نظرات . ملوها الامل بالخلاص القريب . أمّا القريب فقال بسكون :
- هذا ما سنبعث فيه . . .

عند ذلك عقد الاربعة مجلساً قرّروا فيه ، بعد اخذ ورد ، ان غائماً يجتبي . في احد المخادع ، بعد ان يترك لبأدته ورداه قرب الشباك ، مع ورقة صغيرة باسم بدور يقول فيها انه فضل الانتحار على تلك الحياة الذليلة والتعبية بعد موت وحيديه . فتبكي بدور وتعمل حتى يعلم الجزّار بالامر . ثم بعد يومين ، تسير لمقابلته في حدادها ، فتوسل اليه ان يأذن لها بالخروج من عكا مع رفات صغيرها . فاذا اذن ، يشتري فرحات تابوتاً يضع فيه بدل الرفات ، غائماً نفسه ، ثم يتأجر مكاريّاً يكون حناً بيدر المذكور . وهكذا يتقنون نطاق الحصار بسلامة .

وقد تردّد الابوان مدة في قبول هذا الرأي لانه كان يعزّ عليها ان يشركا ذنبك الملكين الظاهرين في غشّ وخداع . ولكن غائماً رأى ان في المسألة خلاصه وخلاص بدور ، وخصوصاً خلاص وطنه من الاشفاق ، فقتنع سرغماً ، وجارته امرأته .

* * *

بعد يومين من انتحار غائم المزعم ، مثلت الحزينة مع خادمها امام الجزّار فعرضت له الامر ، والتست منه باكية ان يسح لها بان تأخذ رفات وحيدها الى ارض آبائها ، فتقيم ما بقي لها من الايام بالحزن والاسى . فنظر اليها الجزّار نظرة الاستطلاع ، فاضطربت قليلاً ثم تجلّدت . فقال :
- طيب اذهبي ! ولكن . . . لا أرى من لزوم لنقل الرفات . . .
فاجهشت بالبكاء . وادارت معاودة الالتاس . ف اشار عليها بالسكوت ، ثم مرّ رأسه وتابع :

- ما لي ولهذه الامور . فاذهبي وخذي ولدك . وخذي خادمك ايضاً فلا نفع لنا منه . . . ولكن بلّني الامير بشيراً ان سيرجع الفرنسيون خائبين عن

قريب ، فننصرف لمطابته ...
 فانحنت بدور وقبلت طرف عباة . ثم خرجت مع فرحات الى حيث
 كان كل شي . حاضراً .
 وعند القلـس سافر الثلاثة بعد ان حملوا التابوت على البغل ، ووراءه بدور
 تبكي . وعن الجانبين خيالان كان ارسلهما الجزار ليرافقا الراحلين الى نقطة
 الحصار فيفتحا لهم الابواب .

لما وصل غانم الى دير التمر ، فتخلص من ضغط الجزار ، ودخل قصره
 المهجور ، واجتمع باميده العزيز ، وادرك حالة الجيل وكـم كان من الضروري
 بحينه ليوحد بين تلك النزعات المتباينة ، ولا يقدر على الجمع بينها آلاه ؟
 ادرك جواب سرّاله ... وفهم « لماذا » شئت العناية الالهية الاستنثار بدينك
 الملكين الطاهرين ، فخر ساجداً لحكمة الله ...

ثم اهتم منذ اليوم الثاني ، فاقام في وسط بستانه اثرأ تذكارياً فخماً
 لوحيديه وضع فيه تابوت الخلاص ، ونقش على رخامه الناصع اسمي
 قعدانه وسعدى ، وتحتها هذه الآية :

« وقد بكونه من الابدان ضحايا في سبيل آبائهم من

« هب لا بلمونه ا »

دير القصر ، نيسان ١٩٣٨ - بيروت ، تشرين الثاني ١٩٣٩

